الحوار حول عروبة مصر والقومية العربية

د. سعد الدين ابراهيم

في اليوم الثالث من شهر مارس (آذار) ١٩٧٨، أطلق الكاتب المصري العربي توفيق الحكيم دعوة علنية على صفحات جريدة «الأهرام» من أجل حياد مصر.

وقد فجّرت هذه الدعوة حواراً واسعاً ومناقشاتٍ ومجادلات حامية بين عدد كبير من عمالقة الفكر والأساتذة والصحافيين ورجال القانون في مصر (وخارجها) طوال الشهور الثلاثة التالية. وسيجد القارىء فما يلي تسجيلاً أميناً لكل ما دار في ذلك الحوار التاريخي الكبير، ولكن يهمنا في هذا المقال الافتتاحي أن نلقي الضوء على خلفيات وأبعاد ذلك الحوار في سياقه التاريخي والمجتمعي. فكما يعلمنا علم الإجتماع المعرفي (Sociology of knowledge) لا تصدر أي أفكار أو مذاهب أو نظريات جديدة عن فراغ. ولا يمكن فهم هذه الأفكار والنظريات فهماً صحيحاً إلاّ بمعرفة المناخ الفكري والسياسي الذي ساد قبل وأثناء ظهورها في مجتمع بعينه. كما لا يمكن تفسير الأفكار والنظريات الجديدة بمعزل عن الخلفية الاجتماعية لأصحابها، والمصالح التي يمثلونها، عن وعي أو غير وعي.

ويقول لنا علم الاجتماع المعرفي، أيضاً، إن ذيوع أي فكرة ليس مرجعه بالضرورة إلى صواب أو فائدة هذه الفكرة للمجتمع بالمعنى المطلق، ولكن هذا الذيوع يتوقف في المقام الأول على أهمية من يطلق الفكرة ومكانته في المجتمع. وما كان للحوار حول حياد مصر، ثم تطوّره إلى حوار أوسع حول عروبة مصر وحول القومية العربية، ما كان له أن يأخذ الشكل الدراسي الكبير، وماكان له أن يستأثر بصفحات الجرائد المصرية والعربية بهذا التركيز طوال ثلاثة شهور كاملة لو لم تكن لمن بدأ الحوار، ثم لمن اشترك فيه من بعد، مكانة عالية في عالم الفكر المصري والعربي.

موضوع الحوار:

بدأ الأستاذ توفيق الحكيم بتحديد موضوع الحوار في الفقرة الافتتاحية لمقاله الأوّل بعنوان: «الحياد» (الأهرام ١٩٧٨/٣/٣):

«لن تعرف مصر راحة. ولن يتم لها استقرار. ولن يشبع فيها جائع إلاّ عن طريق واحد: يكفل لها بذل مالها لإطعام الجائعين والمحتاجين وتكريس جهدها للتقدم بالمتخلفين. وتوجيه عنايتها إلى الارتقاء بالروح والعقل في مناخ الحرية والأمن والطمأنينة... وهذا لن يكون أبداً ما دامت الأموال والجهود تضيع بعيداً عن مطالب الشعب. بدافع من مشكلات خارجية ودولية تغذيها الأطماع الداخلية والشخصية... ما هو الطريق – إذن – إلى واحة الراحة والاستقرار وطعام المعدة والروح والعقل؟ إن هذه الواحة المورقة المزهرة اسمها: الحياد».

ثم يمضي الاستاذ الحكيم في تبرير دعوته لحياد مصر. فهذا الحياد هو لخير مصر العرب والعالم والإنسانية جمعاء. ويعزز هذا الحياد أهمية موقع مصر الجغرافي وتراثها الحضاري العريق – الذي ينبغي أن يكون متحفاً وملكاً للبشرية كلها. تحافظ عليه باحترامها لحياد مصر. وفي مصر المحايدة يكون دور جيشها دوراً دفاعياً بحتاً يذود عن حدودها ويكرس حيادها.

في خمسة مقالات تالية* (الأخبار ١٨/٣/١٩٧٨. أخبار اليوم ٨/٣/١٩٧٨. الأهرام ١٣/٤/١٩٧٨. الأهرام ٢١/٤/١٩٧٨. الأخبار ٢١/٤/١٩٧٨ ١٢/٥/١٩٧٨). يفصل الاستاذ توفيق الحكيم في الدعوة إلى حياد مصر. وفي مبررات هذا الحياد ويستشهد بأمثلة ونماذج حيادية مختلفة.

معنى الحياد عند الحكيم:

لم يفصح الاستاذ الحكيم صراحة في مقالاته الستة عن الأطراف المباشرة التي ينبغي أن تقف منها. أو بينها. مصر موقفاً محايداً. والملفت للنظر هو انه في هذه المقالات ذكر أسماء بلاد ودول كثيرة – عربية وغير عربية (سويسرا. النمسا. السويد. يوغسلافيا. فرنسا. الاتحاد السوفياتي. الولايات المتحدة. فلسطين. مصر. تونس. لبنان... الخ) ولكنه لم يذكر اسم اسرائيل مرة واحدة. أو كلمة الصهيونية مرة واحدة. أو الصراع العربي – الاسرائيلي مرة واحدة.

ومع ذلك لا يمكن ان يكون الحكيم قد قصد حياد مصر بين الشرق والغرب (الدولتين الأعظم). فهناك التزام مصري رسمي يمثّل هذا الحياد منذ مؤتمر باندونغ في عام ١٩٥٥. وقد تأكد هذا الالتزام في مؤتمرات عدم الانحياز المتعددة. والتي عُقِد بعضها في القاهرة. صحيح ان الممارسة العملية كانت وما تزال محايدة غير منحازة. فدعوة الحياد بين القوتين الأعظم في هذه الحالة تعتبر من تحصيل الحاصل. ولا نعتقد أنّ الحكيم كان يعني ذلك بدعوته. وإلاّ لما أثارت هذا الجدل. فالعرب عموماً والمصريون خصوصاً يقبلون عدم الانحياز بين المعسكرين المتصارعين كمذهب تعمق في ضمائرهم على مدى ربع قرن.

كما لا يمكن أن يكون الحكيم قد قَصَد بدعوته حياد مصر بين الدول العربية «المحافظة» والدول العربية «التقدمية» أيّاً كان أساس هذا التصنيف.

فمنذ ولاية الرئيس السادات التزمت مصر الرسمية بمثل هذا الحياد. وتبنّت مفهوم التضامن العربي والبعد عن سياسة المحاور.

* بعد نشرها جميعها في ملف هذا العدد

فدعوة الحياد في هذه الحالة تُعتبر أيضا من تحصيل الحاصل . وماكانت تثير هذا الجدل الواسع . إذا . لم يكن قصد الحكيم حياد مصر بين الشرق والغرب (الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة) . وإذا لم يكن قصده حياد مصر بين معسكر عربي محافظ وآخر تقدمي . فماذا يقصد بدعوته لحياد مصر؟ البديل المنطقي الوحيد المتبقي هو حياد مصر بين العرب من جانب واسرائيل من جانب آخر . والمغزى الإجرائي لهذا الحياد هو خروج مصر من حلبة الصراع العربي -- الاسرائيلي . وتوقيع صلح منفرد مع اسرائيل ونفض يديها من مشكلات العالم العربي . والتفرغ لمواجهة همومها وصعابها الداخلية . هذا الاستنتاج -- في غياب عبارة صريحة -- يؤكد ما ساقه الحكيم من تبريرات لدعوة الحياد.

فالحكيم -- كما هو واضح من نصوص مقاله الأول وما تلاه من مقالات -- يسوق حججه وفقا للمنطق التالي :

١ -- معظم -- إن لم يكن كل -- مشكلات مصر الداخلية والخارجية كانت بسبب الحروب المتتالية التي أنهكتها اقتصاديا واجتماعيا وعسكريا وروحيا.

٢ -- ان مصر خاضت هذه الحروب إما دفاعا عن دول عربية أخرى أو تلبية لنزوات حكامها وأطماعهم الشخصية .

٣- ان الذين دخلت مصر الحروب نيابة عنهم أصابهم الغنى والثراء. بينما أصابها هي الفقر والإنهاك.

٤ -- وبالتالي . فلا مصلحة لمصر في استمرار انغماسها في صراع منهك نيابة عن دول عربية أخرى ، إلا إذاكانت هذه الأخيرة مستعدة للاتحاد الكامل مع مصر واقتسام الأعباء والمسؤوليات والثروات .

٥ -- وعلى ما سبق . يكون في حياد مصر بين العرب «وعدوّهم» خيرها العميم ولا ينبغي في هذه الحالة أن يقف العرب الآخرون في طريق خيرها . أو يعرقلوا مسيرتها نحو «السلام».

وليس هنا مجال الرد على منطق الاستاذ توفيق الحكيم . فالمقالات زاخرة بمن يتصدون لهذه المهمة ولكننا أردنا هنا فقط أن يكون القارىء على بينة من مفهوم الحكيم للحياد . فباستثناء حرب اليمن . كانت كل حروب مصر مع اسرائيل (١٩٤٨ . ١٩٥٦ . ١٩٦٧ . ١٩٧٣) . وما يشير إليه الحكيم «بالعدو» لا يعني إلا اسرائيل . ومن ثم فحياد مصر الذي يدعو إليه الحكيم هو حياد بين العرب من جهة . واسرائيل من جهة أخرى.

وهكذا فهم جميع المتحاورين قصد الحكيم رغم انه -- كما قلنا -- لم يشر لاسرائيل صراحة مرة واحدة في مقالاته الستة .

وفي هذه **الدعوة الحيادية** لم يؤيد توفيق الحكيم من كبار الكتاب المصريين إلا الدكتور حسين فوزي . وأيده بتحفظ الاستاذ أحمد فرغلي والدكتور حسين فوزي النجار . بينما عارضه كل من الدكتور وحيد رأفت . والدكتور ابراهيم علي صالح . والأستاذ أحمد بهاء الدين . والدكتور عبد العظيم رمضان . والدكتور يوسف أدريس . والدكتورة بنت الشاطىء . والدكتور لويس عوض والاستاذ أحمد حمروش *

---

* يعاد نشر مقالات هؤلاء بنصوصها الكاملة في الملف التالي كما أشرنا سابقاً

تشعب الحوار:

كانت معارضة الدكتور لويس عوض لدعوة توفيق الحكيم الحيادية معارضة مثيرة ومعقدة، وقد سبب في تشعب الحوار وتوسيعه. فهو من ناحية يرفض حياد مصر نظرا لارتباطها الجيوبوليتيكي بكل دول المنطقة، ونظرا لارتباط مصالحها المتعددة بمصالح تلك الدول.

. من ناحية أخرى، يصر الدكتور عوض على ان ارتباط المصالح يستوجب فقط نوعا من التضامن والتعاون والتنسيق في مواجهة العدو المشترك ومن أجل الرفاهية العامة لكل الأقطار العربية. ولكنه يرفض بشدة دعوة القومية العربية على أساس انها دعوة عنصرية من ناحية، وعلى أساس أن مصر لها قوميتها المصرية المتفردة من ناحية أخرى. باختصار. لا يؤمن الدكتور عوض بامكانية أو فائدة انعزال مصر عن محيطها العربي، ولكنه في نفس الوقت لا يسلم بهوية مصر العربية، بل ولا يعتقد ان هناك قومية أو أمة عربية واحـدة. وبالتالي فهو يعتبر الحديث عن مثل هذه الأمور، أو عن أي مشاريع وحدوية هو من قبيل الأوهام والأساطير.

وقد عبر الدكتور لويس عوض عن هذه الآراء في ثلاثة مقالات ظهرت جميعها في جريدة «الأهرام» (بتاريخ ١٩٧٨/٤/٧، ١٩٧٨/٤/٢٠، ١٩٧٨/٥/١١). وقد قوبلت آراؤه بعاصفة من المعارضة لا تقل عن تلك التي ووجه بها الاستاذ توفيق الحكيم، فقد تصدى لتفنيدها كل من الدكتور محمد اسماعيل علي، والاستاذ رجاء النقاش، والاستاذ أحمد بهاء الدين، والدكتور سعد الدين ابراهيم، والدكتورة بنت الشاطىء، والاستاذ السيد يسين والاستاذ أحمد حمروش. وكان معظم هؤلاء يتفقون مع الدكتور لويس عوض في الشق الأول من جدله مع الاستاذ توفيق الحكيم حول حياد مصر. ولكن معارضتهم للدكتور عوض انصبت على آرائه حول مفهوم الأمة، والقومية العربية، والوحدة العربية.

وهكذا، وبدخول الدكتور لويس عوض الى معمعة الحوار نجد اننا بصدد أكثر من قضية أساسية:

١- قضية حياد مصر.
٢- مسألة القومية العربية وقضية الوحدة.
٣- هوية مصر.

تصنيف الآراء

باتساع القضايا، وبزيادة عدد المتحاورين حولها، أصبح الجدل مثلث الأطراف، كل طرف يعارض الطرفين الآخرين في إحدى القضايا الأساسية ويتفق مع الطرفين الآخرين في إحدى القضايا الأساسية الأخرى.

(١) **الطرف الأول**: يمثله توفيق الحكيم وحسين فوزي، وهو يدعو الى حياد مصر في المنازعات الاقليمية والدولية، وهي الدعوة التي فهمها الطرفان الآخران كدعوة انعزالية تسلخ مصر سياسيا وعسكريا عن محيطها العربي. ولكن هذا الطرف لم ينكر ثقافة مصر أو هويتها العربية. ويبدو أن ممثلي هذا الطرف لا يعارضان في وحدة عربية إن كانت تعني مشاركة كاملة في الأعباء والمسؤوليات والأموال العربية.

(٢) الطرف الثاني : يمثله لويس عوض ، وهو يعارض الطرف الأول الذي يدعو إلى حياد مصر ولكنه غير مؤمن بالقومية العربية ولا يسلم بهوية مصر العربية ، ويرفض أي مشاريع وحدوية.

(٣) الطرف الثالث : وهو الأغلبية الساحقة لمن أدلوا بدلوهم في الحوار.

ويرفض هذا الطرف دعوة الحكيم (الطرف الأول) الى حياد مصر وعزلتها السياسية والعسكرية عن محيطها العربي - وفي هذا اتفاق مع لويس عوض (الطرف الثاني).. واختلاف معه اختلافا جذريا خاصة حول آرائه وتخريجاته عن مفهوم «الأمة» و «القومية» وهوية مصر والوحدة العربية.

ومن مجموع سبعة عشر كاتبا ساهموا في الحوار ، تبنى منهم اثنان فقط الاتجاه الأول ، وواحد تبنى الاتجاه الثاني ، واثنا عشر تبنوا الاتجاه الثالث ، بينما تارجح كاتبان (هما محمد علي فرغلي وحسين فوزي النجار) بين التأييد المتحفظ والمعارضة المتحفظة لكل من الاتجاهين الأول والثالث.

ومن مجموع واحد وثلاثين مقالا نشرتها الصحف والمجلات المصرية حول موضوع الحوار. مثل الاتجاه الأول ثمانية مقالات ، والاتجاه الثاني ثلاثة مقالات ، والاتجاه الثالث ثمانية عشر مقالا - بينما تأرجح مقالان بين الاتجاهين الأول والثالث.

هناك طريقة أخرى لتصنيف الآراء التي اشتركت في الحوار من خلال لوحة تتضمن كل البدائل المنطقية على أساس متغير بين أساسين. الأول هو الدعوة إلى «حياد مصر» ، والثاني هو «هوية مصر العربية» *.

وقد اختلف المتحاورون على كل متغير بين مؤيد ومعارض كما يوضح الجدول التصنيفي التالي :

هوية مصر العربية

+ (مؤيد) - (معارض) أ ب ج د + (مؤيد) حياد مصر - (معارض)

ففي الخانة أو القسم (أ) من التصنيف نجد آراء الطرف الذي يدعو الى حياد مصر مع عدم إنكاره لهويتها العربية ، بينما الخانة أو القسم (ب) من التصنيف يضم آراء من يعارضون حياد مصر أو عزلتها السياسية والعسكرية عن بقية العالم العربي ، وهم في الوقت نفسه يؤمنون بهويتها العربية.

أما الخانة (ج) فتضم أولئك المحبذين لحياد مصر والذين لا يؤمنون بهويتها العربية. وأخيرا نجد الخانة(د) تمثل آراء من يعارضون حياد مصر ، ويدعون الى بقائها متعاونة عسكريا واقتصاديا وسياسيا مع الدول العربية المجاورة ، ولكنهم ينكرون في الوقت نفسه هوية مصر العربية ، ويعتقدون بهوية مصرية فريدة.

المنظورات المختلفة لفهم الحوار حول عروبة مصر:

يؤكد لنا علماء الاجتماع المعرفي أن توقيت ظهور الأفكار والمذاهب والنظريات ليس مجرد صدفة عشوائية ، أو

(*) قبول هوية مصر العربية ينطوي على تأييد صريح أو ضمني لدعوة القومية العربية والوحدة العربية. وعدم الاعتراف بهوية مصر العربية ينطوي على عدم الايمان بالقومية العربية وعدم تأييد المشاريع الوحدوية.

بالأحرى. يتوقف مدى تداول مثل هذه الأفكار والنظريات ودرجة الطنين الذي تحدثه على توقيت انبثاقها. فنفس الفكرة (أو المذهب) قد تظهر في وقت معين ولا يكون لها نفس الصدى أو الأثر الذي يكون لها لو أنها ظهرت في وقت لاحق أو سابق.

فحينما خرج «ليوناردو دافنشي» على معاصريه بفكرة الطائرة. ثم بفكرة الدبابة العسكرية. وقدم لها نماذج ورسومًا منذ عدة قرون. لم يلتفت إليه أحد، رغم أن الجميع كانوا يعترفون بقدراته الفنية الخلاقة. لقد كان التوقيت غير ملائم، كان دافنشي سابقا لأوانه بعدة قرون.

ومسألة التوقيت هذه، ترتبط، وبخاصة في الأفكار والنظريات الاجتماعية والسياسية، بتربة المجتمع، والمناخ الفكري السائد فيه، ودرجة الإحباطات النفسية، وطبيعة علاقات القوى الداخلية والخارجية. ووضوح الرؤية والمسار لدى القيادات السياسية.

وفي الحوار الذي فجره توفيق الحكيم، وزاده تعقيدا الدكتور لويس عوض حول حياد مصر وعروبتها وما يتصل بذلك من قضايا عديدة متشابكة يبرز سؤال التوقيت: لماذا، مثلا، لم تصدر دعوة الحكيم إلى حياد مصر منذ عشر سنوات أو عشرين سنة سابقة؟ أو لماذا لم يتأخر في طرحها عدة سنوات اخرى؟ هناك أكثر من افتراض لشرح مسألة التوقيت في حالتنا هذه:

– الافتراض الأول: تفجير الحوار هو جزء من مراجعة الحقبة الناصرية:

هنا قد يذهب المحلل الموضوعي الى أن السنوات السبع الأخيرة شهدت مراجعة متصاعدة لبعض الأفكار والمبادىء التي كان الرئيس الراحل جمال عبد الناصر قد أرساها في مصر والمنطقة العربية على مدى عقدين من الزمان.

وقد بدأت حملة (أو تيارات) المراجعة والتقييم بشكل هامس وخافت وجزئي في البداية. ثم ازدادت الحملة ضجيجا واتساعا على مر الأيام والسنين. كانت البداية نقدا مستحيًا لبعض ممارسات الحكم الاوتوقراطية، وما صاحب ذلك من تجاوزات على الحريات المدنية والسياسية لبعض الأفراد والجماعات. واتسع الموضوع بعد ذلك ليشمل صيغة الحكم والتنظيم السياسي ثم الأشتراكية والقطاع العام ثم السياسة الخارجية والعلاقة الاستراتيجية بالاتحاد السوفياتي. ثم العلاقات بالغرب. وأخيراً اقتربت حملة المراجعة والتقييم والنقد الى قلب مصر ولبّ شخصيتها. وهويتها الذاتية. والمعروف بين علماء النفس الاجتماعي ان الهوية أو الذات — سواء كانت فردية أو جماعية هي أكثر جوانب الشخصية صموداً ومقاومة للتغير.

فمن السهل نسبيا ان يغير الانسان رأيه في مسألة معينة تتعلق بأشياء أو اناس آخرين. وأصعب من ذلك بدرجة أن يغير الانسان من مواقفه واتجاهاته، والأصعب بدرجات أن يغير من قيمة قيَمِه وعقائده. والأصعب من كل هذا وذاك ان يغير الانسان هويته الذاتية.

والسبب هو أن هذه الأخيرة تترسخ وتتعمق على مدى سنوات طويلة. وما ينطبق على الأفراد ينطبق على الجماعات والشعوب والأمم.

لقد عمقت الثورة المصرية بقيادة جمال عبد الناصر هوية مصر العربية، وأعطت للقومية العربية أقوى تعبيراتها السياسية في تاريخ العرب الحديث، وأطلقت للمد القومي الوحدوي أسرع عنان. ورغم العثرات والنكسات، ظلّت عروبة مصر أساساً لتوجهاتها القومية، وتحركاتها الاقليمية، وتحالفاتها الدولية، ولسياستها الخارجية (في الحرب والسلم على السواء).

لذلك كانت عروبة مصر آخر المعاقل التي تعرضت للمواجهة والهجوم. فالناقدون أو الناقمون على الحقبة الناصرية، بصرف النظر على وجاهة المبررات الذاتية أو الموضوعية، كان لا بدّ أن ينتظروا ويتأنوا قبل مهاجمة هذا المعقل الحصين. أو بلغة العسكريين، كان لا بد من قهر أو حصار أو تليين كل معاقل الحقبة الناصرية، أولا، قبل التجاسر على معقل الذات القومية لمصر العربية.

هذا الفرض – أذن – يرى ان التشكيك في عروبة مصر أو المطالبة بحيادها هو جزء لا يتجزأ من حملة المراجعة والنقد والتقييم للحقبة الناصرية. ويؤكد من صحة هذا الفرض – في نظر الآخذين به – هو ان الاستاذ الحكيم الذي فجر الحوار مطالبا بحياد مصر هو نفسه الذي بدأ وأعطى حملة نقد ومراجعة الحقبة الناصرية زخمها واحترامها منذ ست سنوات. في كتابه **عودة الوعي (١٩٧٢)**، أفصح الحكيم – لأول مرة – عن رأيه في سلبيات التجربة الناصرية، وكيف انه وغيره من كبار الكتاب كانوا مخدرين مبهورين بالزعامة الاسطورية لعبد الناصر، بدرجة أفقدتهم وعيهم طوال ما يقرب من عشرين سنة.

في فترة غياب الوعي هذه، لم يكن الحكيم قادرا على التفكير الصافي أو التقييم والنقد الموضوعي للزعيم الراحل ولسياساته ومبادئه وشعاراته. وبعودة الوعي استطاع توفيق الحكيم أن يستعيد قدراته النقدية لما يجري حوله وحول وطنه من امور (!) فالدعوة إلى حياد مصر هي جزء من الصحوة النقدية للاستاذ توفيق الحكيم بعد «عودة الوعي»

وينطبق الشيء نفسه على الدكتور لويس عوض. فحملة المراجعة والنقد والتقييم للحقبة الناصرية بدأت قبل وبعد وفاة الزعيم الراحل. ورغم اختلاف منطلقاته ونتائجه عن توفيق الحكيم، إلا أن له آراء نقدية متكاملة عن هذه الحقبة. وقد ضمن معظمها في كتابه «أقنعة الناصرية السبعة» (١٩٧٥).

عملية المراجعات التاريخية من هذا النوع ليست شيئا جديدا أو فريدا تختص به مصر والعالم العربي. ففي أعقاب رحيل أي قيادة عملاقة تجري مثل هذه المراجعات لشخص القائد وما ارتبط به من مفاهيم ومبادىء وممارسات. حدث هذا مثلا في حالة نابليون، وابراهام لنكولن، وروزفلت وستالين. ويحدث الآن في حالة زعيم الصين الكبير ماوتسي تونغ. وحدثت في بعض هذه الحالات «ردّات» بعضها دائم ومعظمها مؤقّت.

- **الافتراض الثاني : تفجير الحوار هو جزء من مجهودات التسوية السلمية مع اسرائيل :**

فحوى الحوار ولحمته دارا حول صالح (أو طالح) مصر من الاستمرار في قيادة الجانب العربي في صراعه مع اسرائيل. فدعوة الحكيم لحياد مصر - كما سبق وبينًا - هي دعوة لانسحابها من هذا الصراع، وتكريس مواردها البشرية والمادية للتعمير والبناء الداخلي.

لذلك يرى بعض المحللين أن مثل هذه الدعوة ما كانت لتظهر لولا الجو الذي أشاعته مبادرة السادات نحو إسرائيل بزيارته للقدس في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧. ويذهب هذا الافتراض إلى أن دعوة الحكيم هي المكمل النظري و الفلسفي لمبادرة السادات السياسية والدبلوماسية. فمبادرة السلام ودعوة الحياد تكمل كل منهما الاخرى. وهما معا يكوّنان نمطا أو رؤية مستقبلية واحدة لما ينبغي أن تكون عليه أوضاع المنطقة في المستقبل القريب والوسيط.

وهذه الرؤية بركيزتيها - مبادرة السلام ودعوة الحياد - تتفق عن قصد أو غير قصد مع رؤية الغرب وأهدافه في الشرق الأوسط. فالغرب يهدف منذ سنوات إلى تقليص الدور المصري في المنطقة بحيث لا يتعدى حدود مصر الجغرافية. وإذا كان لا بد لمصر أن تلعب دورا إضافيا خارج حدودها فليكن ذلك بعيدا عن المشرق العربي على وجه الخصوص، أي باتجاه الجنوب والغرب (وادي النيل وشمال افريقيا).

ويمضي أصحاب هذا الافتراض بتذكيرنا ان الدعوة الى حياد مصر تتفق أيضاً مع الرؤية الاسرائيلية لمستقبل الشرق الأوسط وترتيب أوضاعه السياسية والاقتصادية والعسكرية. فإسرائيل تهدف منذ إنشائها الى إخراج مصر من حلبة الصراع العربي - الاسرائيلي. فبهذا تكتمل لاسرائيل الهيمنة المطلقة على مصير أقطار الشرق العربي من لبنان الى العراق، ومن الاردن الى منابع النفط في الخليج. بل يلمح أصحاب هذا الافتراض إلى أن «حياد مصر»، بالطريقة التي يدعو إليها توفيق الحكيم، يعتبر شرطاً من شروط اسرائيل للانسحاب من سيناء المصرية المحتلة. وما إصرار اسرائيل على الإبقاء على مستعمرتها في سيناء إلا ورقة مساومة لإجبار مصر على نفض يدها تماما من شؤون البلاد العربية الاخرى، وخاصة المجاورة لإسرائيل والتأكد من ذلك. ومع تقلص الدور المصري في العالم العربي تفتح اسرائيل لنفسها أبوابا لملء الفراغ (قارن الدور المصري في لبنان - ١٩٥٨ و ١٩٧٨ - مقابل الدور الاسرائيلي في كلا التاريخين)، وهذه فقط هي البداية.

- **الافتراض الثالث : تفجير الحوار هو مظهر لصراع الأجيال في مصر :**

يلاحظ من تتبع الحوار، حول حياد مصر وهويتها العربية، ان احد خطوط الاستقطاب الفاصلة بين المتحاورين كان عامل السن أو العمر. فالذين دعوا إلى حياد مصر وخروجها من الحلبة السياسية - العسكرية للعالم العربي والشرق الأوسط، وكذلك الذين أنكروا هوية مصر العربية وأنكروا وجود أمة عربية واحدة، كان معظمهم - إن لم يكن جميعهم - من جيل ما فوق السبعين، جيل الشيوخ. أي أن معظم هؤلاء كانوا في الخمسينات من أعمارهم حينما قامت ثورة الناصرية منذ ربع قرن، أي أن أفكارهم ومعتقداتهم كانت قد أرسيت وترسخت بالفعل قبل هذا التاريخ.

وثالوث توفيق الحكيم – حسين فوزي – لويس عوض هو تجسيم لذلك الجيل الذي شرب من لبن الحضارة الاوروبية، وأشعلت خياله في شبابه رؤية مصر كجزء من حضارة البحر المتوسط بروافده الفرعونية – الهلينية – الرومانية. فتوجهات ذلك الجيل – إذن – هي توجهات عبر البحر الأبيض، نحو الشمال.

على الجهة الأخرى من خط الحوار، الرافضون لحياد مصر والمؤمنون بهويتها العربية وبارتباط مصيرها بمصير أمتها العربية، ومعظمهم – إن لم يكونوا جميعهم – هم من جيل ما تحت الستين: في الخمسينات أو الاربعينات او الثلاثينات من العمر. انهم جيل ثورة يوليو. كان نصفهم في مقتبل العشرينات، ونصفهم الآخر دون سن العشرين حينما قامت الثورة عام ١٩٥٢. أي ان أفكارهم ومعتقداتهم لم تكن قد تكونت أو تكلست. وجاءت الثورة لتقوم بتنشئتهم سياسيا وعقائديا.

وقد عاشوا وشاركوا في أمجاد الثورة ونكساتها، وفي أفراح القومية العربية وأتراحها، في لحظات المد وفي لحظات الجزر كانوا يحسون انهم جزء لا يتجزأ من أمة عربية اكبر، ينفعلون لها ومعها، كما كانت هي تنفعل لهم ومعهم. وباختصار، إن توجهات هذا الجيل هي توجهات مشرقية ومغربية عربية، لا بحر متوسطية ولا اوروبية. والطريف أن جيل الشيوخ – ربما من حيث لا يقصد – قد أسهم مساهمة ضخمة في تمكين الأواصر بين أجزاء الأمة العربية، وفي تغذية وإنعاش عقلها الجماعي، بإثراء التراث الثقافي العربي الذي نشأ عليه الجيل التالي من أبناء الأمة العربية، ونقصد به جيل ثورة يوليو، داخل مصر وخارجها. فمن خدم الأدب والنقد العربي الحديث أكثر من طه حسين وتوفيق الحكيم وحسين فوزي ولويس عوض؟ إن طلاب المدارس من الخليج الى المحيط يقرأون طه حسين وتوفيق الحكيم منذ أربعينات هذا القرن. وقد كانت كتاباتهم مع غيرهم من جيلهم بمثابة المحرك والوعاء الذي صاغ الوجدان القومي لابناء الأمة العربية من الجيل الذي تلاهم. ولم يكن جمال عبد الناصر بقادر على إشعال ذلك الوجدان لو لم يكن جيل طه حسين وتوفيق الحكيم قد أسهم في وضع خمائره.

– **الافتراض الرابع: تفجير الحوار كان ردّ فعل الحوادث العنف ضدّ المصريين:**

يذهب هذا الافتراض إلى أن الدعوة إلى حياد مصر جاءت كرد فعل غاضب لمقتل الاستاذ يوسف السباعي (الأديب المعروف ورئيس مؤسسة الأهرام) في قبرص على يد عناصر عربية من جبهة الرفض. ويقول أصحاب هذا الافتراض ان اغتيال يوسف السباعي كان «القشة التي قصمت ظهر البعير» بالنسبة لعدد كبير من المصريين، فهؤلاء قد سمعوا من إذاعات دول الرفض «إهانات» للرئيس المصري، وتهديدات باغتيال كل من ذهب معه إلى القدس. وقد حرك فيهم كل ذلك نزعة مصرية انعزالية تريد الخلاص من التورط في مشكلات العرب. وقد غذّى هذه النزعة الإيحاء الدائم في بعض وسائل الأعلام المصرية بأن قضايا العرب، ومن بينها القضية الفلسطينية، هي السبب في جميع مشكلاتهم الاقتصادية. أما تعرض المصريين للاغتيالات والاهانات على أيدي أشقائهم العرب فهو الأمر الذي لا يمكن قبوله. في هذا الجوّ الانفعالي صدرت دعوة الحكيم بحياد مصر. وخرج صوت لويس عوض ينكر عروبتها وهناك من يعتقد ان الصوتين

المشهورين كانا وسيلة لامتصاص غضبة بعض قطاعات الشعب المصري ، وكانا معاً بالون اختبار لدرجة الالتزام العربي داخل مصر.

هذه الافتراضات الأربعة وغيرها مما لا يتسع المجال لعرضه ، هي منظورات مختلفة لفهم الحوار الذي دار حول حياد مصر وعروبتها. والافتراضات الأربعة ليست متعارضة بالضرورة ، بل ربما ، لو أخذت معاً ، تقدم تفسيراً متكاملاً لأسباب وتوقيت تفجير الحوار في هذا المنعطف التاريخي الذي تمر به مصر والأمة العربية.

ما أسفر عنه الحوار:

الحوار -- في نظرنا -- هو ظاهرة صحية في الأمد البعيد ، مهما بدا غير ذلك في الأمد القصير. ويعرف الكاتب أن كثيرا من القوميين العرب ، داخل مصر وخارجها ، قد أصابتهم دهشة أو صدمة حينما فتح موضوع حياد مصر وعروبتها من جديد. لقد دار حوار مشابه في أواخر الثلاثينات - كان قطباه وقتها **طه حسين** الذي تبنى الخصوصية المصرية ، و **ساطع الحصري** الذي أوضح أن هذه الخصوصية لا تلغي أو تناقض عروبة مصر. ودخل الحوار كثيرون منهم **مكرم عبيد** ، سكرتير عام «الوفد» أكبر حزب شعبي في مصر وقتئذ ، منتصراً لعروبة مصر وارتباطها المصيري بأمتها العربية. ولم يكن مكرم عبيد يتحدث باسمه فقط ، ولا أدل على ذلك من حزبه ، وهو في الحكم بعد ذلك ببضع سنوات ، استضاف المؤتمر التأسيسي لجامعة الدول العربية ، ودخلت مصر عضواً مؤسساً ، وأصرّت على أن تكون القاهرة مقراً للجامعة. هذا ما فعله حزب الأغلبية. وفي لحظة تاريخية مصيرية اخرى قررت مصر خوض حرب فلسطين. وكان في الحكم آنذاك حزب الأقلية السعدي ، وفي كلا الحالين لم يكن لحزب الأغلبية ولا لحزب الأقلية أن يتخذا ما اتخذاه من قرارات لولا معرفتهما بالاحساس الحقيقي لنبض الجماهير المصرية.

ودار حوار ثانٍ في أوائل الخمسينات حول عروبة مصر والقومية العربية والوحدة. ووصل الحوار قمّته أثناء الإعداد لدستور جديد في أواخر ١٩٥٥ ، أي بعد قيام الثورة. وصدر الدستور في أوائل ١٩٥٦ متضمناً النص الصريح لأول مرة على أن «مصر جزء لا يتجزأ من الأمة العربية». وكان جمال عبد الناصر قبل ذلك بعدّة شهور قد ضمن «فلسفة الثورة» في كتابه المعروف بهذا الإسم. وكانت الدائرة العربية هي أول وأهم دوائر الحركة بالنسبة لعلاقات مصر الاقليمية والدولية.

وباختصار ، حسم الحوار للمرة الثانية لصالح حقائق التاريخ والجغرافيا والثقافة ، أي لصالح عروبة مصر والقومية العربية. وكانت معارك الثورة المصرية في السنوات العشرين التالية تكريساً سلوكياً وعملياً لهذه الخلاصة. وتحقق أثناءها أول مشروع وحدوي عربي في التاريخ الحديث ، واشتركت مصر في كل أحداث هذه المنطقة ، وأسرت الخطوط العريضة لعلاقة العالم العربي بالقوى الكبرى ، وقدمت نموذجاً لعمليات التغيير الاجتماعي والتنمية الشاملة احتذت به معظم الأقطار العربية. لقد كان انغماس مصر العربي وتفاعلها العضوي كاملين وفعّالين ، واصبحت عروبتها أمراً مسلّماً به داخل وخارج العالم العربي ، أو هكذا بدا الأمر.

لذلك كانت فجيعة العروبيين ، حينما فتح ثالوث الحكيم - فوزي - عوض هذه المسلمة لإعادة النظر فيها ، ففجروا

الحوار للمرة الثالثة خلال نصف قرن. مستمراً ثلاثة شهور عاصفة فكرياً وانتهى الحوار رمزياً بمقال لتوفيق الحكيم بعنوان «كلمة أخيرة.. لا أخرى» (الأخبار ١٢/٥/١٩٧٨). كما انتهى عمليا بتدافع أحداث مصر الداخلية وما بدا انه تفجير لقضية الديمقراطية الوليدة، والمجابهة بين النظام وأحزاب المعارضة.

ولكن. ماذا كانت نتيجة الحوار؟

هناك مستويات مختلفة يمكن النظر من خلالها لهذه الجولة الثالثة في الحوار حول عروبة مصر: على مستوى تلاطُم الأفكار وجدليتها، اتضح للجيل الجديد - الذي لم يشهد جولة أواخر الثلاثينات وجولة أوائل الخمسينات - إن تلاطم عروبة مصر قدر لا فكاك منه، تكرّس على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان. عروبة مصر ليست ثوبا نرتديه ونخلعه حسب المزاج. وقد اعترف بهذا كل المتحاورين - باستثناء الدكتور لويس عوض الذي ظلّ طرفاً وحيداً من أول الحوار إلى نهايته. كذلك اتضح للجيل الجديد أن عزلة مصر وحيادها، مهما بدت جاذبيتها، هما أمران غير ممكنين وغير مرغوبين. وقد ساعد الصلف الاسرائيلي وتعنت مناحيم بيغين بالنسبة للجلاء عن سيناء، بعد كل ما فعله السادات، على التذكير بهذه الحقيقة. فدخول مصر كل حروبها لم يكن للدفاع عن العرب بقدر ما كان دفاعاً عن نفسها ضدّ عدو يهددها ويهدد غيرها من العرب. واتضح للجيل الجديد أن كونه جزءاً من أمه عربية أكبر لا يتنافى أو يتناقض مع خصوصيته النوعية كمصري. وان هذه الخصوصية تتواجد بدرجات مختلفة لدى بقية شعوب الأمة العربية، وان في التنوع مع الانسجام إثراء وقوة. كما اتضح له، أخيراً، أن تعثر مشاريع الوحدة أو كبوات ونكسات الأمة العربية، هي بسبب حكام هذه الأمة. ولا ينبغي ان تؤخذ الشعوب بجريرتهم.

على مستوى آخر، كشف الحوار عن المرارة التي يحس بها معظم المصريين تجاه أشقائهم العرب. فلدى قطاعات عديدة من الشعب العربي في مصر شعور بأنها محاصرة بالمشكلات الاقتصادية والاجتماعية، وانهم في هذا الحصار يحتاجون الى العون من أشقائهم العرب، وخاصة الدول النفطية. انهم يسمعون عن الثروات الضخمة التي تودع في البنوك الأجنبية، أو تستثمر في الدول الغربية، أو تهدر في مشاريع مظهرية أو على موائد القمار. وبصرف النظر عن صحة أو دقة ما يسمعون، فان رجل الشارع لا يملك إلا أن يحس بالمرارة والإحباط. كذلك كشف الحوار عن مصدر آخر من مصادر المرارة لدى المصريين، وخاصة العاملين منهم في دول عربية أخرى. فكرامة بعضهم تمتهن يوميا من جراء التفرقة في المعاملة. أو السلوك «الاستعلائي» من جانب بعض مواطني الدول المضيفة. وأخيراً، كشف الحوار عن الحزن وخيبة الأمل للانحدار في تعامل الحكام والحكومات العربية، وللمهاترات السوقية المتبادلة في صحافة وإعلام هؤلاء الحكام.

على مستوى ثالث، كشف الحوار عن عمق وأصالة الفكرة القومية والانتماء العربي بين الغالبية الساحقة من المثقفين المصريين. فرغم جو الاستعداء المتبادل بين الحكام ووسائل إعلامهم، في مصر من ناحية وفي دول عربية اخرى من ناحية ثانية، بعد مبادرة السادات، فإن الأغلبية الساحقة من الكتاب الذين اشتركوا في الحوار شجبوا دعوة الحياد والعزلة وادعاءات التشكيك في عروبة مصر. فلم يتجاوز من أنكروا هوية مصر العربية الخمسة في المائة من مجموع المتحاورين،

هذا رغم تلاؤم الجو السياسي العام لمثل هذه الآراء. في المقابل كانت نسبة المعترضين على حياد مصر والمدافعين عن هويتها العربية والاتجاهات الوحدوية عموماً اكثر من خمسة وثمانين في المائة من مجموع المتحاورين. هذه النسب ومحتوى الحوار لا تترك مجالا للشك في أين يقف شعب مصر.